فرحـــي

إمان مبروك

عقربُ السّاعة الحائطيّة لا زال تائها لا يعرف الطريقَ إلى السّاعة الثانيةَ زوالا، لا بدّ أنّ البطاريّة قد استهلَكَت قوّتَها واستسلمت للرّقاد، أخذها حسام بعصبيّة وبدأ في رجِّها على أمل نبض جديد يتدفّق داخلَها، لكن يبدو أنّ محاولاته باءت بالفشل، استغرب لعدم قدرتِه على إعادة تشغيلِها على عكس كلّ مرّة، لم يا تُرى؟!

أدرك بإحساس العاشق أنّ عليه الخروج الآن ليتمكّن من الوصول إليها عند الثانية، أغلق دكّانَه وسار نحو الثانويّة التي تُمتحن فيها حبيبتُه فرح امتحانَ البكالوريا، إنّه آخر يوم لها، وستتنفّس الصّعداء بعد جهدٍ دام شهوراً...

سار في طريق الثانوية المعتاد، الذي غرس فيه شوقَه لرؤيتِها، والذي لم يفارق خطواتِه مذ أحرقَتْه الجمرة السّحرية التي أودَعَتْها فرح في قلبِه حين رآها أنثى مكتملةَ الأنوثةِ بعد عودَتِها من سفر طويل، فلم يرغب ساعتَها إلا بحرائقَ أشدَّ وأقوى تذرو رمادَ قلبِه، وكان كلّما غاص في أدقّ تفصيلٍ من تفاصيلها تمنّى لو يستحيلُ جزءاً من ذلك التّفصيل، يشيخُ داخلَه ويشتمّ رائحتَه حتى يفقدَ وعيَه داخلَه ...

اعتاد أن يسرق من لمعانِ شعرِها وهي قادمةٌ باتّجاهه بعض الضّوء الذي ينير به عتمةَ لحظاتِه في غيابِها، أما نظراتُ عينيها حين ترمُقُه، فهي لصٌّ خطفَ قلبَه في

وضَحِ النّهارِ يوماً، ولا زالَ في كلّ مرةٍ يهدّده بالقتلِ إذا ما استعادَه!

اقتربَ من الثانويّة، إنها مغلقة! عمّ الهدوءُ في المنطقة، والسّكونُ ألقى بظلالِه، لا فتيات في المكان، ولا حتى رائحتَهنّ!

-ترى كم السّاعة؟ هل تأخّرت؟!

أخذ يتساءل وهو يجولُ بناظريه يميناً ويساراً علّه يلمحُ طيفَها، علّه يسمعُ صوتَها يناديه من بعيد، بدأ اليأس يملأ قلبَه، فليس من عادَتِها ألا تنتظره إذا ما تأخر! ولكنّه تأخّر أكثر من اللزوم! وليس بإمكانِها التأخّرُ أكثر من خمسة عشر دقيقة، فليس والداها من النّوع الذي يسمح بتأخّر الفتاة، أو بانفتاح الفتاة!

اشتدّ قلقُه عليها، بدأ يدور حول نفسه في دائرة مغلقة، لا يعرف ما يجب عليه أن يفعل، الأبواب موصدةٌ في وجهِه، وجهلُ سكّانِ القريةِ أحكم إغلاقَها بالمفتاح، فلا هو قادرٌ على أن يقترب من باب بيتها للتأكد من تواجدها هناك، ولا بقادرٍ على أن يسأل أحداً من المارّة الذي يعرفون بعضهم البعض، ويتحرّون تحركات بعضهم البعض، وخاصّة الفتيات خوفاً من الفضائح والعار!

قرّر أن يقف بعيدا عن باب بيتها، فإن كان مكروهٌ ما قد حصل لها فلابدّ سيتحرّك أفرادُ عائلتِها، وإن كان الوضع طبيعيّا سيفكّر حينها في وسيلة أخرى تُبرِد حرَّ القلقِ والخوف الذي اخترقه ...

لم يكد يقترب من البيت حتى رأى شاباً يركض بسرعة جنونية نحو الباب...

-ماذا حدث يا ترى؟ لابدّ أنّها هي!

قال لنفسه ونبضات قلبِه بدأت بالتّسارع، لم يخبْ إحساسُه يوماً، فليست هي من تُخلفُ الوعد إلا لسبب خارجَ إرادَتِها، وخاصةً اليوم، ذكرى عيدِ ميلاده!

-كم كانت تتلهّف لهذا اليوم لتهديني شيئاً ما من صنع يديْها!

قال لنفسه والدموع قد انفلتَت من معاقِلها واتّجهت صوبَ مُقلِه تنتظر الإشارة ...

-إنّه أخوها من يركض، يا إلهي!

أدرك ذلك وهو يقترب حذِراً من المنزل، اختبأ خلف الشجرة وأخذ ينتظر نتيجة ذلك الركض المجنون، وهو أكثر جنوناً دون ركض! دقّ أخوها البابَ بكل قوّة دقّات متتاليةٍ تنبئ بمصيبةٍ كبيرة، فتح والدُها وهو يصرخ:

-ماذا حدث؟

كانت أمّها تضع كفّيها على وجنتيها في استعداد لتلقّي الصّدمة ...

-لقد اعتقلوا فرح مع مجموعة من الفتيات وهن خارجاتٌ من الثانوية ...

انفلَتَت الدموع من مقلتيه وهو يشهدُ سقوط والدتِها من هول الصّدمة، كادَ يلقي بنفسه وبها إلى التهلكة لولا أن تدارك نفسَه، أمسك رجليْه عن أن تركضا باتّجاه بيتها ليتأكّد من الخبر، ولو أنّه أدركه بقلبه قبل أن يسمعه بأذنه ...

أخذ يتتبّع والدَها الذي خرج من البيت مسرعا باتّجاه مركز الشّرطة، وصورةُ فرح تتداخل في عقله مع صورة أخيها وهو يحمل والدَتَه إلى المشفى مغشيّاً عليها، جميعُهم يعشقونَها على الملأ ويعشقُها هو في السّر، جميعُهُم هالَهُم غيابُها في مرأى من النّاس وهالَه غيابُها في مرأى من الله ونفسِه!

كم تمنّى لو أنّه يركض مع والدها في هذه اللحظة بدل أن يلحقه كاللصّ، ليتَه طلب يدَها قبل هذه اللحظة ولم ينتظر حتى يفاجئَها في يوم ميلادِها، ليته فعل قبل أن تفاجئه هي في يوم ميلاده!

-كم هو مشؤوم ميلادك يا حسام!

حدّث نفسه يائساً، لكنه سرعان ما أعاد الأملَ الهارب إلى قلبه، وراح يسرق بعض اللّقطات من والدها علّه يسمع ما يريحه، سمع الضابط يقول بعنجهيّة:

-لقد اعتُقِلت وانتهى الأمر، كانت مع الثوّار، ابق دقيقةً أخرى وستلحقُها ...

أدار والدُها ظهره عائدا من حيث أتى ووجهه مغلّفٌ باليأس والقنوط، أما حسام فقد غُلِّفَتْ دنياه بالسّواد، وارتدَت ثوبَ الحِداد، وأغلقَ على نفسه البابَ في ركنٍ منزوٍ ينتظر لحظةَ الإفراجِ عنها لتعود إليه روح الحياة ...

أخذ يعدُّ السّنة تلوَ الأخرى، والثانيةَ تلو الثانية، وفي كل لحظةٍ كان خيالُه يسافر به إلى زنزانة مظلمة كما حياتُه، تنزوي فيها حبيبتُه في ركنٍ متهالكٍ كما هو، تتعذّب كما هو، وتُغتَصَبُ كما اغتُصِبَتْ فرحتُه وفرحتُها، ومع كل صرخةٍ لها في

خياله كان يصرخ الضِّعف، حتّى فقَد الأمل، فأقعدَه المرضُ، وراح ينهشُ جسده بقسوة، ويلتهِم قوّتَه بِنَهَم ...

ثلاثُ سنوات مرّت وهو على حافّة الموت لا يفصله عن السّقوطِ في وادِيه إلا خيطٌ رقيقٌ من الأمل كان يرقّعه بنبضات قلبه كلّما أوشك على الانقطاع، ورغم أنّه أوهى من خيط العنكبوت إلا أنّ قوّته استمدّها من قوّة ابتسامة فرح حين كانت تسرقها من البكاء الأليم لتقابلَه بها، أما قدرته على التماسك فجزءٌ من التّحية التي كانت تخطفها من أنين الأوجاع لتلقيها عليه، وهو غارق في كتابة قصّة حلمِه ...

كان يحاول أن يردّ عليها التحيّة، بابتسامةٍ عليلة، داخل حبكةِ أحلامه اليقِظَة، لم يكد ينطق بالحرف الأول حتى سمع النّاسَ خارجَ نافذة المستشفى تتحدّث عن الإفراج عن عدّة فتيات، حاول التقاطَ اسمِها من بين الكلمات العديدة التي كانوا يتفوّهون بها ...

سمع اسمَها يتقافز من بين ألسنتِهم كضوء خافتٍ يقترب، كحبل نجاةٍ يلوح في الأفق، نعم إنه اسمُها اشتدّ ضوؤه ووهجه، ابتسم بعد أن خاصمت شفتاه البسمة لثلاث سنوات، اختفت ملامحُ المرض شيئا فشيئا، وعادت قوّتُه إليه شيئا فشيئا ...حين استطاع الوقوف على قدميه ثانية سلكَ طريق منزِلِها، يترقّب خروجَها منه كي يلمحها، كرّر ذلك مرّاتٍ عديدة في اليوم، مرّ اليوم الأول، والثاني، ثم الثالث، لكن لا أثر لفرح، ولا للسانٍ ينطق باسمِ فرح، ولا لرائحةٍ تنتعش باسمِ فرح!

مرّ الوقت سريعا وهو يختلس النظر إلى بيتِها، وأنيسُه أسئلتُه وذكرياتُه اليتيمة، بدأت الشمس في الغروب، وأخذت الهالةُ الحمراء حول الشمس تناجيه باليأس، أخذ يصغي إلى مناجاتِها باهتمام، ويراقب خفوتَها باهتمام أكبر، أحسَّ بها تبتلعه، وتضيّقُ الخناقَ على أنفاسه، لولا أن سمع رجلين يتحادثان:

-لقد لطّخت المدعوّة فرح ثوبَ عائلتها

-إنها ضحيّةٌ لا ذنبَ لها!

عندها أحسّ بشيء كالصاعقة يقذف به بكلّ قوّته دون رحمة، إلى عالم خالٍ من كلّ شيء، عالم لا نهائي وغير محدود ...

-هل يتحدثون عن فرح حبيبتي؟ أم عن أخرى؟!

تساءل علّه يسمع مجيباً يطمئنه بأنها ليست هي، وبأن من سمّوا أفراحا كثيرات، وأنّ من دُفِنَت ليست فرحُه، تمنّى لو أن أحدا ما كان يحكي له حكاية وسيختمها، أو أنه يحلم وسيستيقظ سريعا، عاد خطوات إلى الوراء والصّدمةُ السّامة قد بدأ سمّها يجري بين عروق وجهه، أخذ يطيل النظر هنا وهناك ليستوعبَ ما سمع، وما رأى، وما أحسّ، ليستوعبَ حقيقة ما حدث، لكنّه لم يستوعب إلا جريَه كالمجنون إلى المقبرة، بلهاث المفجوع، علّه يجد الجواب هناك ، أخذ يركض ويركض، لا يرى غير طيفِ فرح، ولا يسمع غيرَ صوتِ فرح، ولا يشمّ غيرَ رائحةِ فرح!

وقف أمام بابِ المقبرة، لفت انتباهَه امرأة بجوار قبرٍ حديثٍ تطأطئ رأسها، رفعتْ رأسَها ويديها لتمسح دموعَها، ثم وقفَت بسرعة ونظرت يمينا ويساراً لتطمئن ألا أحد يراها، وقبل أن تهمّ بإسدال نقابِها خطف حسام نظرةً إلى وجهِها فإذا بها هي، أمّها، المكلومةُ كحالِه، والثكلى كروحِه، أسدلَت نقابَها وأسرعت الخطى نحو الخارج، نظر إليها ولسانُ عينيه يقول: حالي كحالِك، نبكيها خفيةً عن الأعين ...

رمَقتْه بنظرة حزينة، وبمقلتين منتفختين من شدّة البكاء، يغطّي بياضَهما احمرارُ الدّموع، ونظراتُها تقول: حان دورك ...

اقترب من القبر بخطواتٍ متردّدة، لا يدري أيَّ دنيا سيعيشها من بعدِها، وأيَّ أيّامٍ ستمضي دون صدى أنفاسها، وقف أمام القبر وقد أيقنَ أنّ صباحَ الحياة بغير ضحكاتِها ليل أسود، وأن ليلَ الحياة بغير همساتِها جحيمٌ أبديّ!

وضع يديه المرتجفتين المبلّلتين بعبراته المقهورة على تربة القبر المبلّل بعبرات والدتِها، فراح الدّمع يتسرّب من اليدين إلى التراب يزيد ابتلالها، وقد زاد انهمارها من المدامع لمجرّد رغبته في استنطاق حزنه.

بضعفك ورقّتك قتلْتِ نفسَك حبيبتي، وببراءتك نسجْتِ لجسدك الطاهر كفناً أبيض كبياض قلبك، تُرى هل يقيكِ كفَنُك بردَ الليل والقبر؟! طوال ثلاث سنوات لم تهدِني إلا ما يقيني بردَ الشّتاء، كنت أمقُتُ أن أضع قبعَة حتى أهدَيتِني واحدةً في

ذكرى ميلادي بلون شعرِك في العام الأول، خيوطُ صوفِها نسجتِها بأنامِلِك الرقيقة، فكنت أحسّ بلمساتِك تبعِد عني البرد كلما وضعتُها ...

وفي العام الثاني أهديتِني قفازين بلونِ عينيك العسليتين، طرّزتِهما بحلاوة روحك، فكنتُ أتيقنُّ أن العسل من حلاوتِك حليَ ومن بلْسَمِك لعِقَ بلْسَمَه!

وفي العام الثالث أهديتِني جوربَيْن خيوطُهما شديدة بقدر لهفتِك عليّ، فكنت ألتهِف بقدرِ شدَّتِها حين يشتدّ عليّ الحنين!

أما في العام الرابع يا فرَحي، فقد أهديْتِني الموتَ بلون غيابك، فنسخْتُ من الموت توائمَ بعدَدِ لحظاتي بعدك!

أرَدْت ثورةَ كرامةٍ فثارَت عليك حيوانيّة البشر، لم تُفْقِدْكِ طهارَتك يا عذرائي، ولم تلطّخ شرفَك يا نقيّتي، بل زرَعتْ ثورةً في دمائي تفجّرُ حيوانيّتي على كل فَرَح شُبّه بك يا فرَحي!

اغتصبَك السّجان وما نجّسك، وقتلَكِ أبوك وما قتلك! وكيف يَقتُل من هو مقتول بجهله! وكيف تُقتلُ من هي حيّة بطهارتِها! لا يدري أن العارَ وُلِد بدفْنِها ودُفِنَ الشّرفُ ببقائه! لا يعلم أنَّ دفنَها ما هو بدفنٍ، وأن ثورة دمائي اغتصبَت وأنجبَت أفراحاً لا تُقتل ولا تُدفن ولا تموت!

أدركْتُ يا فرحي أنّ البطاريّة من حياتِك كانت حياتُها، وبلقائنا كانت تسير عقاربُها، هل يا ترى إن رجَجْتُ ترابَ قبرك ستعود ساعتي إلى الحياة!